الكاتب المصري الساخر محمد فتحي:

السخرية سلاح أقوى من الرصاص!

إبراهيم محمد حمزة

صدر منذ أيام قليلة كتاب «مرسي ودموعي وابتساماتي» للكاتب المصري الساخر محمد فتحي، ليضيفه لقائمة كتبه المهتمة بالشأن السياسي الاجتماعي «مصر من البلكونة» و«لك شوق في حاجة» و«دمار يا مصر» وقبيل الثورة أصدر «مصر وخلاص» الذي اعتبر أن مصر تحتاج للتغيير بأسرع ما يمكن، وبعد الثورة أصدر كتابه «كان فيه مرة ثورة» والتي حول فيها جهة الحكي للأطفال ليقص عليهم مفهومه المبسط للثورة المصرية .. لمحمد فتحي جانب آخر فهو مدرس مساعد بقسم الإعلام جامعة حلوان، ويكتب القصة القصيرة والرواية و«الكوميكس» .. وقد فاز عام 2009م بجائزة ساويرس عن مجموعته «بجوار رجل أعرفه» .. يرى محمد فتحي أن الشعب أكثر سخرية من الساخرين، وأن الكاتب يكتب ما يراه صحيحا، ويجب أن يسجل رأيه في عصر ساد فيه التشكيك، محمد فتحي شخص ساخر بأدب، وبشكل عام، في مقدمة كتابه «لك شوق في حاجة» يكتب على غلافه «طبعة مزيدة ملقحة» بدلا من «منقحة» المعتادة، مفسرا أنها «ملقحة على أرفف المكتبات، وهكذا تطاله السخرية ذاته .

■ تميل كتبك إلى رصد الظواهر الاجتماعية بشكل ساخر، مغلفة بإطار سياسي، ألا تخشى على «عُمر كتبك» من كونها تجميعا لمقالات تتابع الحدث اليومي؟

■ بل أنا حريص على أن أجعلها كذلك، لأن مؤرخي اللحظة غائبون، فكلام هذا قد يرجع له كثيرون بعد سنوات عديدة ليعرفوا أي شيء كان يشغلنا، وكيف كانت آراؤنا فيه في تلك الفترة، والواقع أن هناك هاجسا دائما يشغلني، وهو: هل نكتب لمتعة لحظية، أو لتذهب كتاباتنا وآراؤنا أدراج الرياح بمجرد أن يفرغ القارئ من قراءتها في صحيفة الصباح؟..هل سيتم التعامل مع مقالاتنا اليومية مثل التعامل مع المناديل الورقية (الكلينيكس) تستخدم مرة واحدة وتلقى في سلة المهملات؟..أنا شخصيا قررت ألا تصبح كتابتي كذلك، وأن أترك رأيي واضحاً ليراجعه كثيرون في زمن يسهل فيه التشكيك في الجميع .

■ لدينا أدب ساخر وأدب ضاحك، وسنجد إبداعا مذهلا ليوسف إدريس ومستجاب وبلال فضل يصنف كأدب ضاحك – راجع مثلا العتب على النظر وطبلية من السماء لإدريس .. أليس للأدب الضاحك مبررات وجوده؟

■ نحن في زمن كل شيء فيه مبرر، سواء في مناحي الحياة، أو حتى في الأدب، لكن مشكلتنا ليست في مبررات وجود ما تفضلت أنت وأسميته بالأدب الضاحك، بل فيمن يكتبه، لأن الفارق بين أديب يضحكك ومونولوجست لم يعد موجوداً عند كثيرين ممن يتصدون للأدب الساخر، كما أن شخصاً بعمق وتجربة يوسف إدريس يغامر بتضمين مجموعته قصة سيهاجمه النقاد من أجلها ويعتبرونها (خفيفة) ليس موجوداً، أو بالأحرى ليس مستعداً لدخول التجربة.

■ هل يدهمك الواقع أحيانا بكآبته، فتستعصي عليك الكتابة الساخرة؟

■ بل يفاجئني أن الواقع صار أشد سخرية مما يريد أن يكتبه أعظم الكتاب الساخرين، ويفاجئني أكثر أن أكثر الكتاب الساخرين موهبة هم هؤلاء الذين يقفون في مظاهرات التحرير أو تقابلهم في المواصلات العامة مصادفة فتسمع من أحدهم حكمة ساخرة تجعل رأسك يدور من فرط النشوة..

■ قلت في مقال لك – بمجلة الدوحة – أن الأدب الساخر يحتاج إلى حرية، وأنه تنفيث عن متاعب وهموم مقلوبة، ألا ترى أن السخرية تتألق أكثر مع القهر والطغيان؟

■ صحيح. السخرية سلاح لا يزال أقوى من الرصاص، فهو لا يقتل بقدر ما يعذب الضحية ويجعلها (مسخة)، والقهر والطغيان من وجهة نظري عامل حفاز قوي في هذه المعادلة التي تنتج تجربة قوية تبقى رغم أنف التاريخ. والسخرية التي يمارسها الشعب المصري بأكمله هي البديل المثالي للانتحار، والمنفذ الرئيسي للكبت والشعور بالذل أو المهانة أو الفساد الذي يعيش فيه معظمهم أو يعانون بسببه، لذلك لا تقتطع حالة السخرية العامة الموجودة لدى الشعب المصري من سياقها أبداً، فحتى النقاش العقلاني الذي تتحدث عنه يحمل داخله سخريته الخاصة به.

■ أصدرت مؤخرا كتابا ساخرا جديدا بعنوان «مرسي ودموعي وابتساماتي» ما دلالة هذه المقابلة في عنوان الكتاب؟

■ عنوان الكتاب مقابلة لرواية شهيرة لإحسان عبد القدوس هي (دمي ودموعي وابتساماتي)، وقد استبدلت بكلمة مرسي كلمة دمي لأنه لم يكن ليصبح في موقعه كرئيس جمهورية لولا دماء أريقت في الثورة المصرية، وعبر فترة انتقالية لازال الألم يكتنفنا من مجرد ذكرها، كما صادف أن أنتهى من الكتاب بالمواكبة مع دماء أخرى أريقت في عصره عند قصر الاتحادية، وهي الدماء التي يتحمل مسؤوليتها كاملة، ولذلك شعرت بأن مرسي يقابل دمي في العنوان، كما أن الكتاب عبارة عن مقالات كتبتها في فترة الستة أشهر الأولى من حكم مرسي ولذلك اشتملت على ما أثار الدموع والابتسامات من مواقف عديدة، ولذلك جاء الاسم على هذا النحو .

محمد فتحي

■ أشعر أحيانا في مقالاتك أنك تقف على الحد الفاصل بين الكاتب والثائر .. كيف تصنف نفسك؟ وهل ترى للأدب والكلمة دورا في الثورة العظيمة؟

■ والله لكي أصدقك القول أنا لا أعتبر نفسي كاتباً أو ثائراً، بل متحدث رسمي باسم ما أشعر به فأكتبه، لي موقف يجب أن أصرح به مهما أغضب غيري، وأدفع ثمنه مهما كان مؤلماً، وتصنيفي الوحيد لنفسي هو أنني أحب الكتابة وأتعامل معها بمبدأ الهواة وروح الهواة حتى يومنا هذا وأتمنى أن أظل كذلك حتى لا أفقد براءة الهواية ومتعة الاكتشاف ولذة المغامرة .

■ ما الجديد الذي قدمته للطفل، وقد رُشحت لجائزة الصحافة العربية للأطفال عامي 2007 و2008؟ وكيف قمت بحل معضلة الفن والتعليم والتلقين والترميز؟ وماذا أضاف كونك كاتبا ساخرا لكتابتك للطفل؟

■ للأسف الشديد حين تنظر لكتاب الأطفال في مصر تجدهم تعدوا الستين ـ وربما السبعين ـ ولازال بعضهم يكتب لطفل الستينات في الحقبة الناصرية، وهو شيء مدهش.الآن هناك ثورة اتصالات ومعلومات كبيرة وابني الصغير له مفرداته المختلفة ومعرفته التي تفوقني في كثير من المجالات، كما أنه يلجأ للجدل والنقاش في كل شيء ويرفض إملاء الأوامر عليه في بعض الأمور.تخيل إذن إشكالية أن تكتب لأطفال مثل عمر ابني هذا فلا تجدهم يقرأوك. يا عزيزي يكفي أن أقول لك ان ابني هو الذي يحكي لي حدوتة قبل النوم وليس العكس، وبالتالي يجب أن تخاطبه بما يتوافق مع تفكيره الأكثر تطوراً من تفكير طفل الستينات، وبالمناسبة ..الكاتبان الوحيدان اللذان يحاولان مواكبة كل جديد لدى الأطفال رغم سنهما الكبيرة هما الأستاذان عبد التواب يوسف ويعقوب الشاروني.

ككاتب ساخر أدرك كذلك أن الطفل يحب المعلومة الظريفة خفيفة الظل والمغلفة بإطار قصصي أكثر بكثير من فكرة افعل ولا تفعل أو قل ولا تقل، فالطريقة المتبعة الآن في الكتابة للأطفال هو ما يطلق عليه التعليم الترفيهي edutainment وهو أسلوب تعلمته من عملي مع وائل حمدي في عالم سمسم، ووائل بالمناسبة من أهم كتاب الأطفال في مصر رغم قلة إنتاجه فيه، ورغم اتجاهه مؤخرا لكتابة السيناريو.

رواية الفلسطيني وليد الشيخ:

«العجوز يفكّر بأشياء صغيرة» سؤال الزمن والوجع والانتظار

محمد السمهوري

يطوي الروائي الفلسطيني وليد الشيخ في روايته «العجوز يفكّر بأشياء صغيرة»، الزمن وهو يحرق مراحل شخصياته من اجل مقولته التي تتمحور في عنوان الرواية، فالاشياء الصغيرة، هي في الواقع اسئلة وجودية قاسية، مسرح الرواية كان متحركا. عواصم عديدة شارك الابطال افكارهم واحاسيسهم بدأت من الاحتلال الاسرائيلي مرورا بمعاناة الفلسطيني المهجر داخل وطنه والمستلب وانتهاء بالاحتلال الذي اصبح الزمن الحاضر في رصد حياة الانسان الفلسطيني.

انها الاحداث التي يعتقد القارىء انها صغيرة كما يشير عنوان الرواية، يرى العالم والمتغيرات وسقوط الانظمة، ورغم ان الرواية ذات القطع المتوسط والصادرة عن دار ازمنة عام 2012، الا انها اعادت قارئة الحالة العربية من خلال شخصياتها الفلسطينية والعربية وحتى العالمية.

علاقات متشابكة ارادها الكاتب في روايته، من فلسطين الى موسكو ابان الحكم الشيوعي، الى شتات شخصياته بحثا عن حياة افضل، وفي كل فصل انكسار يتناول فيه ألم شخصياته العاطفية والسياسية والجنسية، الشخصيات المتمردة، مريم اللبنانية المنتمية للحزب الشيوعي اللبناني، ايزابيل التشيلية اليسارية، المخيم، والقرية الاولى، اجتياح رام الله وقصف المقاطعة ومحاولة قتل ياسر عرفات، الانتفاضة الثانية، وكثير من الاحداث التي جاءت في سياق شخصيات الرواية ممسكة بجمر سؤال الحرية، بمنطق لم يعتاد عليه القارىء في خلط الاوراق من اجل رواية لم تغفل شيئا من احداث سياسية وحسية هي في الغالب محاولة لخرق جدار جديد من طريقة مبتكرة في كتابة الرواية تؤدي في النهاية الى قول ما هو معاش في حياتنا اليومية.

ان رواية «العجوز يفكّر باشياء صغيرة» هي اضافة نوعية الى الرواية العربية والفلسطينية على وجه الخصوص، فيها الرواية التي حاولت رصد فترة زمينة بوقت قياسي، ممسكة بلعبة الوقت، والقفز بين المدن وشخصياتها باسلوب خلاب، بل استطاع فيها الكاتب وليد الشيخ ان يقول كل ما يجول في صدره دون ملل، يقول بطل الرواية «يعرف ان الزمن لا يتكرر، ولا ينتهي، فقط يمر، دون رائحة، دون صوت، لكنه يمر، يراه في تبدل ملامحه في المرآة في صعوده الدرجات، في تجاعيد وجه الجدة الاتية من زكريا الى المخيم. لتقول كل صباح في ما يشبه معزوفة عسكرية لدولة قديمة، يقطع هالعمر مر عالفاضي، مر واحنا نستنى!!»

هو الزمن في حياة الفلسطيني، كما تقول الرواية مقولتها، الا ان الوجه الاخر هو انتظار، الوجه المكمل في شخصية الفلسطيني، الذي ينتظر العودة واي عودة، اسئلة جوهرية تناولتها الرواية بشكل مكنها ان تكون سلسلة وسهلة لكنها بلا اجابة عن معاناة الانسان علاقاته العاطفية والفكرية والحسية، ظلت معلقة، لكنها في المجمل استرسلت في سؤالها كأنها لا تريد اية اجابات، كانت شخصيات الرواية تريد ان تقول ما تشعر به وتمضي، الى عوالم تتحدى فيها ما تبقى من امل في العيش.

انها رواية الالم الانساني المعاصر، تبدأ في فلسطين المحتلة، والمتروكة للزمن والانتظار والموت، مرورا بالمدن والاشخاص الذي يمثلونها، ليعود الزمن والانتظار يجلس تحت الاحتلال يتذكر الحياة وابجدياتها، يحاول ان يعيش مع ذاكرة مليئة بالوجع والعزلة.

«رقصة التنين» لعامر هشام الصفار:

العبور نحو الشرق

حميد ركاطة *

■ أول ملاحظة يمكن تسجيلها هو أننا إزاء نصوص مختلفة سواء من حيث الطول أو الجنس، تأخذ تجنيسا موحدا (ق ق جدا)، فعدد النصوص يتجاوز المائة والعشرين نصا. ونصوص المجموعة ارتبطت في مجملها بالخاطرة، والموقف، والأخبار، والأحداث العامة، التي يتم بلورتها بمجهود كبير في قالب القص القصير جدا. كما تضمنت نصوصا ارتبط أغلبها بالجانب المهني والاشتغال اليومي للكاتب كالطرائف، وقضايا محيطه الصغير، أو في علاقته بالوطن، أو المجال الذي يقطنه كالمدينة (كارديف)، وعلاقات العمل، أو كنتف من السيرة الذاتية التي ارتبطت بعلاقاته الخاصة، و ذكرياته التي نقلها بمرارة في مواجهة إكراه أزمنة ولّت، مرتبطة بأمكنة تم نسجها وفق مقارنته بين وصف معالم مكان إقامته (كمغترب) والوطن الذي من خلاله يسترجع الذاكرة النسية، خصوصا بغداد ومحيطها. كما عثرنا على نصوص كتبت انطلاقا من مشاهداته كسائح لبلدان عربية منها المغرب، أو أحداث نسجت انطلاقا من نقل وقائع حقيقية جرت على ألسنة أصحابها. ما يدفعنا إلى التساؤل حول كيفية الاشتغال في بعض نصوص هذه المجموعة وعن الخلفيات الابداعية والفنية التي كتبت بها.

الكتابة /المكان / الابداع

إن تأثير مجال الاشتغال كطبيب نطاسي، فتح عيني الكاتب على الكثير من القضايا الخاصة ببلد الاقامة ـ كارديف – ومدى تأثير تقاليده في النظر إلى الكتابة ذاتها. يبرز ذلك من خلال الاسهاب في الوصف لتفاصيل جانبية تدفع القصة إلى الاكتناز الذي يفقدها أحيانا لذة التلقي، ويتناقض مع طبيعة الاشتغال في القصة القصيرة جدا التي ترتكز على الاضمار والحذف والتكثيف ....وهي مقومات تسيّر نقل الحدث إلى الذروة بالسرعة المطلوبة وتحقق العصف غير المتوقع لانتظار المتلقي، مع ما يخلقه الأثر من دهشة وإثارة أو غرابة.

فاشتغال القاص عامر هشام الصفار على مادة قصصية جديدة لها ارتباط خاص بمجال تخصصه كطبيب، جعله يتوفق كثيرا في العديد من النصوص، وكتبها دون تكليف، مثلا في نص «ثري» ص 2 يقول السارد:

«أقرباء المريض الثري حوله كل يوم ..قال لهم طبيب مبتدئ أن حياته في خطر .. في نهاية الأسبوع بدأ الثري يتشافى ..وبدت غرفته خالية من الزوار».

إنه نص بني على عنصر المفارقة، ويبرز آفة الطمع الذي يعري مفهوم ونوايا أصحابه بسرعة ..ويقدّم قيم أخلاقية تروم الحث على التمسك بالقيم النبيلة وترسيخها عوض الدافع المحفوف بالاستغلال البشع والرهيب. كما أن القاص يبرز بشاعة المشهد الثقافي من خلال نص «لسعات» ص 30 وما يدور في الكواليس من صراعات بين المثقفين (الشعراء خصوصا) حول الاستئثار والاستفراد بشاعرة مبتدئة لجمالها، لتفريغ نزواتهم، حيث ستتركهم يتصارعون وتنسحب، وهي سخرية مشيّدة على طرح نقيض مضمر أي أن أساس الصراع وضرورته يجب أن تكون حول قضايا الشعر وقضاياه. فنص لسعات يغدو نموذجا مثاليا على دقة التشييد.

ويلجأ الكاتب إلى التوسل بالأنسنة في بعض النصوص كنص «ورود» ص 33 «وقرب جبل قاسيون» ص 38 وهي أنسنة تبرز كدلالة على الوردة / المرأة ارتباطا بعلاقته المهنية والحياتية .فحزن الوردة في النص الذي يحمل نفس العنوان وهي كناية على امرأة جميلة لا يعرفها بالمقارنة مع دلالة الوردة الحمراء الناعسة، الدال على امرأة في الذاكرة أو في البال. وقد علّل ذلك بكونه شمّ عطرها كإحالة على (علاقة سابقة)، وستتكرر هذه الدلالة في نص «قرب جبل قاسيون» للإشارة إلى حب قديم يقول السارد «ينظر بأمل حيث الوردة الحمراء القانية، فيرى أوراقها الذابلة كبيرة تبلّلها قطرات ماء تراءت له دموعا حارة ظلت تسيح وتسيح».

كما تحتل الكتابة كفعل حيزا مهما كما برز من خلال بعض النصوص ك «أهل السياسة» ص 36 باعتبارها كتابة فكرية لم يعد لها متلق، وليس مرغوبا فيها حتى للعرض في واجهات المكتبات، ما دامت كتب الفضائح وحدها تتصدر المبيعات. كما يمارس النقد سطوته وضحته الحالمة بالاختلاف والخلاف وتضارب الأفكار، وتضحى أقلام شارلي شابلن الصامتة درسا بليغا صامتا، عمل على انتقاد منظومات فكرية واقتصادية لم يستطع النقد الحداثي ولا الكلاسيكي بلوغه.

فالكتابة هاجس يومي يعيشه الكاتب وهو يمارس طقوسه الغريبة كما في نص «كاتب» ص 47 حيث نلمس أن البحث عن قصة ضائعة سيقود الكاتب إلى اكتشاف نفسه بعد استيقاظه من الحلم والإحساس بذاته وكينونته كإنسان جديد.

فالكاتب كائن اجتماعي يتأثر بثقافة الغير ويعجب بها، ويضحى أكثر ارتباطا بأسرته الصغيرة ومؤثرات المحيط. لكنه تأثير يبقى ظاهريا مادام لاوعيه وأحاسيسه الباطنية أكثر ارتباطا بالماضي وببلده الأصلي كلما استّبد به الاعجاب أو التشبيه أو المقارنة كما في نص «تنور» ص 44.

فالحنين إلى الوطن يطغي بحضوره ويتجسّد في نصوص الكاتب عامر الصفار، ويظل حاضرا من خلال كتابات تفوح منها رائحة الاغتراب، كما هو الأمر في نص «بيتي» ص 53 حيث نلمس الفرح مجسّدا من خلال قيام السارد باستنساخ صورة البيت الذي لم تتح له ظروف قاسية (سياسية) من زيارته. يقول السارد «لي بيت جميل في بغداد لم يتح لي الذئب زيارته منذ أعوام، فاستنسخته في أرض غربتي». فالاغتراب سيظل السمة البارزة والواضحة والمؤثرة في ذات أحسّت بعنفه وهو يمزق حلكة لياليها بسكين حاد. وقد لمسنا عنف هذا الطرح في نص «القاتل» ص 58 حيث أن هروب الظل له دلالته على الاحساس بالانشطار والاغتراب الذي يولد الرتابة.

لقد ظل الكاتب وفيا لذكرياته التي تطفو من حين لآخر بشكل ملموس ومؤثر كنص «عام جديد» ص 63، حيث ينقل العديد من التفاصيل الخاصة بمسقط الرأس. فالأشياء المهملة والأمكنة تستحضر لتحقق عبور الكاتب من بلد الاغتراب نحو الشرق عبر القيام بمقارنات – غالب الأحيان – في لحظات الاحساس بالحزن والوحدة أو الحنين.

إن المكان يسكننا، ومعالمه تظل مشيدة بأعمالنا على الدوام، فهي أمكنة تجتاحنا تفاصيلها وأحداثها، فنظل مسايرين لأخبار البلد الأصلي بنوع من الغيرة على قيمه والإخلاص له ولو عن بعد، كنوع من الوطنية، كما هو الأمر في نص «نصيحة» ص 61 حيث نلمس هذا الطرح يقول السارد مبلّغا عن مؤامرة إعلامي ينصح صديقا له متجه نحو العراق «إذا أردت أن تحصل على ما تريد من العراقيين فعليك برشوتهم ب «بطل ويسكي اسكتلندي» لم أحتمل صبرا فنشرتها مبلّغا كل العراقيين عن فاجر جديد يريد بهم السوء».

بعض نصوص المجموعة تنطوي على مفارقات جميلة لكنها تفتقد إلى البناء العاصف مما يفقدها أحيانا جماليتها بسبب الاسهاب في الوصف، كنص «زيارة» ص 60 حيث تبرز صورة المغترب دائما مغتربا حتى بعد العودة إلى الوطن، يتجلى ذلك من خلال طريقة لباسه وسلوكه المتأثر ببلد الاغتراب، ومما يعمق هذا الطرح نظرة أهل البلد له «أحسّ المغترب أن كل الناس قد عرفوه ..الزائر المغترب الذي ترك مدينته منذ سنين وجاءها اليوم حاملا جواز سفر أجنبي».

لقد لاحظنا أن النصوص القصصية القصيرة ترتحق من السيرة الذاتية للكاتب وهي تعرض تفاصيل انبعثت من رماد الذاكرة، تبنى بنوع من التوازي مع الحاضر المعاش وتعمل على تجاوز عقبات الماضي وأشواكه التي ظلت مندّسة في الروح من خلال تصحيح مسارها مع ابنائه وتلبيته لرغباتهم التي هي في الواقع رغباته الدفينة التي لازالت حاضرة بقوة نظرا للمنع والحرمان اللذان عايشه وخلّف خدوشا في الذاكرة (نصوص: الدراجة ص 43 الساعة ص 37 / بائع السمك ص 66).

نصوص مستقاة من واقع معاش

في نص «رقصة التنين» ص 71 الذي هو العنوان الحامل للمجموعة نلمس اندفاع الزوج وانسياقه في رقص مع سيدة غريبة ومنتش إلى حد بعيد، سيلاحظ مراقبة زوجته وهي غاضبة يقول «في لحظة الزمن التقت عيناه بعيني زوجته الواقفة قرب منصة رسم عليها تنين أحمر، بدا له التنين وكأنه ينفث الدخان من منخرين كبيرين» ص 71.

إنها نصوص ارتبطت أكثر بمشاهداته وحياته اليومية سواء مع زوجته أو أبنائه وأصدقائه كما هو الأمر في نص «ضمير الغائب» ص 62 الذي يبرز أثر الانفتاح على العالم الافتراضي الذي بقدر ما ينقل وقائع وتعليقات ونقاشات فردية تتحول إلى جدال مبهم أحيانا أو مشاهدات مرّت عابرة في لحظة زمن «حدث معي في مانشستر» ص 65 ونص «فقدان ذاكرة» ص 67 ونص حادث ص 68 ونص «2012» ص 60.

البناء الحدثي وتنوع التشييد

يبرز التشييد التقابلي في العديد من النصوص التي تبرز المفارقة الساخرة كنص «عراقية» ص 32 الذي يعري التركيبة النفسية لأفراد المجتمعات. فمقاييس الجمال تحدّدها البيئة والتقاليد الاجتماعية المنتمي إليها، ولا تتخذ كقاعدة موحدة، وإنما تستنتج من زوايا نظر واعتقادات أكثر ارتباطا بنمط الحياة والأخلاق والدين. فالجمال في نظر العراقية أن تكون الفتاة سمراء عيناء زجاء في حين تعتبر صفات الجمال في المجتمعات الآخرى غير مقبولة كما هو الشأن مع المرأة الانجليزية «بيضاء خرقاء ...لا هي بالكحلاء ولا الهيفاء».

نفس التشييد نلمسه في نص «كاري هندي» ص 32 من خلال الدعوة التي وجهت لحاضر حول ضغط الدم وسيلاحظ المدعو من خلال مقارنته بين داخل وخارج القاعة (الوجبات الدسمة المشبعة بالبهارات الحارة / في مقابل لغو الأطفال ولعبهم ورقصهم على أنغام هندية جميلة. ليظل الاضمار محيلا على المفارقة التي على المتلقي استنتاجها ومعرفة أسباب عزوف المحاضر على القيام بعرضه. وهو تشييد سيتواصل بدقة في نصوص أخرى مثل «رزق» ص 31 بحيث يبرز النص نوعا من التوازي مع العديد من المتناقضات لنفس الشخص، كما يقدم صورتين متقابلتين ومتعارضتين من حيث الهدف والمعنى والاحالة (مسجد / حانة) كدلالة على مسار واحد نحو البحث عن الرزق.

---

* ناقد وقاص من المغرب

(1) عامر هشام الصفار رقصة التنين (ق ق ج) دار أقلام للنشر- كارديف ويلز المملكة المتحدة

صقر ابو فخر.. اعيان الشام اعاقوا العلمانية في سوريا

بيروت ـ من جورج جحا:

قال الكاتب الفلسطيني صقر ابو فخر في كتابه «أعيان الشام وإعاقة العلمانية في سورية» ان اعيان الشام بمعنى مدينة دمشق حالوا دون تطور سوريا بعد الاستقلال الى دولة ديمقراطية.

ورأى ان المثلث المؤلف من ملاك الاراضي والتجار ورجال الدين ادى الى اعاقة العلمانية في سوريا.

جاء كتاب صقر ابو فخر في 175 صفحة متوسطة القطع وصدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت وعمان.

وتحت عنوان (مدخل) كتب المؤلف يقول «الاطروحة الرئيسية في هذا الكتاب هي ان اعيان مدينة دمشق لاسباب تاريخية متراكمة حالوا دون ان تتطور سورية بعد الاستقلال سنة 1946 الى دولة ديمقراطية حديثة.

«وإن عدم تطورها على هذا النحو لم يكن خيارا خالصا للحكام الذين تعاقبوا على السلطة السياسية بل ان اسبابا تاريخية واجتماعية واقتصادية ودينية كانت تعيق مثل هذا التطور منها ركاكة البنية التجارية للمدينة في عصر اندماج السوق السورية بالسوق العالمية في القرن التاسع عشر وغلبة مالكي الارض على الحياة الاقتصادية للمدينة ودور رجال الدين (وبينهم كثير من مالكي الارض والتجار) في السعي الدائم لتلطيف الصراعات الاجتماعية بصفة كونهم وسطاء اجتماعيين بين الفلاحين والملاكين الذين كانوا مرتبطين الى حد بعيد بعلاقات اخوية متوارثة والطابع المحافظ للصناعيين والحرفيين ورجال الاعمال».

وفي هامش عن هذا الامر قال الباحث «كان الفلاحون والملاكون الكبار ينتمون على العموم الى الطائفة الدينية نفسها الامر الذي اعاق ظهور الصراعات الطبقية بصورتها الحديثة».

اضاف يقول «وهذه العناصر كلها تشابكت معا لتصبح سببا رئيسا من بين اسباب اخرى في عدم تبلور فئة اجتماعية (او طبقة اجتماعية) تتبنى عضويا مفاهيم الحرية والتعددية وتحمل مشروعا سياسيا جديا لبناء نظام سياسي ديمقراطي معاصر».

ومضى صقر ابو فخر يقول «سأحاول ايضا البرهنة على ان مثلث ملاك الارض والتجار ورجال الدين وهم اعيان دمشق اعاقوا العلمانية في سورية ايما اعاقة جراء الطابع المحافظ لهذا الثالوث التاريخي ومهدوا الطريق جراء فشل سياستهم الاقتصادية لاكتساح الارياف البائسة معالم الدولة الحديثة المتبرعمة الامر الذي ادى الى اقصاء المدينة نفسها ولو جزئيا عن الافكار العلمانية وعن التيارات السياسية الديمقراطية وإلى تهميش الارياف التي وجد ابناؤها في الاحزاب العلمانية ملاذا يعدهم بالمساواة والمواطنية المتساوية ووجدوا في الجيش ميدانا للترقي الاجتماعي».

وزاد على ذلك قوله «وهذه العملية المركبة والمتفاعلة كانت على الارجح الاساس الذي ادى الى ظهور الدولة التسلطية المعاصرة في سورية. وبهذا المعنى فان التسلط (او الاستبداد) لم يكن مجرد خيار للحاكم او للجماعة الحاكمة بقدر ما كان نتيجة غير محسوبة تماما لهيمنة الاعيان على السياسة والثروة في المدينة العاصمة لا لسوريا وحدها بل لبلاد الشام تقريبا».

وتحت عنوان (من دولة متصدعة الى دولة محطمة) كتب المؤلف يقول «حاولت النخب السورية التي وصلت الى الحكم في اثناء الانتداب الفرنسي والتي ورثت دولة متصدعة ان تؤسس دولة متماسكة. الا ان احفاد هذه النخبة بـ«قوتهم» المسلحة سنة 2011 ربما يحولون سوريا اليوم الى دولة محطمة غدا».

وقال «ان جانبا من الاحتجاجات التي اندلعت في سورية في 15–3–2011 لا علاقة لها بالديمقراطية ولم تتخذ شكل الاحتجاج السياسي في سياقه الديمقراطي» وإنما كانت في شكل احتجاجات طائفية ثأرية أو عرقية.

وتابع قائلا «اما الفئات التي خرجت الى الاحتجاج (في القامشلي في 2–6–2005) فيمكن تصنيفها كالتالي: 1/سكان الارياف المهمشة المحيطة بالمدن. 2/ضواحي المدن التي تعج بالعاطلين عن العمل. 3/النازحون من مناطق القحط الى ضواحي المدن. 4/ابناء الطبقة الوسطى المتعلمون والباحثون عن مكانة اجتماعية تليق بشهادتهم والذين ما عادوا يطيقون نظاما استبداديا. 5/ناضلون ومثقفون ومفكرون وكتاب وناشطون في هيئات المجتمع المدني. 6/اكراد وتركمان وأبناء اقلية قومية».

وتحت عنوان (المثال السوري) قال صقر ابو فخر «ان التسلسل الطبقي للفئات الاجتماعية في مدينة دمشق وهي المدينة التي تصنع الثروة والسياسة معا كان على النحو التالي: ملاكو الارض على رأس الهرم الاجتماعي ويليهم رجال الدين فالاغوات الذين تحولوا من سلطة لحفظ النظام الى تجار حبوب ومواش ثم التجار الصغار وهم اصحاب الدكاكين والمحلات البسيطة في الاسواق التقليدية كالحميدية فالحرفيون. اما الفلاحون فهم خارج نطاق المدينة مع انهم يرتبطون بمالكي الارض من اعيان المدينة برباط وثيق. وبطبيعة الحال لا توجد حدود مرسومة بين هذه الفئات على الاطلاق».

وتحت عنوان (استعصاء الحداثة) قال المؤلف «استعصت مفاهيم الديمقراطية والعلمانية والحداثة على المدن التقليدية مثل دمشق ولم تتمكن من اختراق اسوارها جديا جراء هذه الشبكة المتينة من المصالح التي ادارها الاعيان من مالكي الارض ورجال الدين والتجار ولا سيما المتحدرون من الآغوات وسيطروا بذلك على الفلاحين وأرباب الحرف والصنائع».

الكلب الذي قرأ ميلان كونديرا

باسم سليمان *

الجرو الصغير ينبح اللمبة
يقفز نحو الفراشات التي أحرقتْ أجنحتها
وعادت ديداناً
الجرو الصغير لم ينبح يوماً القمر
لكنّه
يجري صوب نيزكٍ
كأنّه عظمة
ويحلم
عندما يصبح كلباً
سيخطف الكلبة الزهرية التي تلعب بها
الطفلة
التي تشده من ذيله
وينجب منها جراءً
تنبح عندما تضع لها بطارية «دورسل» في
ظهرها
بوقار رجل دين يمشي
مبتلعاً لسانه
يتعرق خفية
لا يلتفت لقطة مهرطقة تعترض طريقه
لكلبة تتنهد كصدر مراهقة
مستقيماً يمشي
مصغياً لأي نأمة تصدر من الأعمى
الأعمى الذي رمى العصا البيضاء
التي كان يضرب بها طبول المكان
ويصيخ السمع كخفاش
لحشرات الأصوات في الهواء
الأعمى قذف العصا بعيداً
لكنّه لم يجر خلفها

كمقياس رختر
يهتز أنفه
يجرّ الرجل ذا البذلة السوداء خلفه
كشيخ ومريد
يلتقط بصمة الرائحة
يغلي الدم بعروقه
يحكّه جلده
كأنّ آلاف البراغيث
تخرج في
مظاهرة
للحظة يتمنى أن ينهش جسده
ويترك الدماء تسيل بهدوء
كمن قطع وريده
ينبح
يبعده الرجل ذو البذلة السوداء
ويمتلئ الهواء
بطحين أبيض ، أبيض
كالسعادة

كالعادة لم يجفل من صوت إطلاق النار
شاهد الإوزة تسقط كفراشة محروقة
الأجنحة
شاهد أيضاً نيزكاً مرّ قريباً جداً من
فمه
اشتم رائحة البارود قوية كرائحة كلبة
كلّ ما فعله
خطا خطوتين
وضع رأسه على الحذاء الذي كان يلاعبه
وبصبص ليد تربت على رأسه
آخر ما فكر فيه
لو أنه جرى خلف تلك القطة المهرطقة.

2013 /1 /30
<bassemsso91@gmail.com>

---

* شاعر من سورية

«أيّام إسبانية بين كتالونيا والأندلس» لنور الدين بالطيّب:

عطر الأمكنة.. ألق التّواريخ وشجن الذاكرة

شمس الدين العوني

الرحلة عنوان لافت من عناوين الإنسان منذ إقامته على هذه الأوض.. ألم يدوّن رحالة ومؤرّخو العالم القديم أخبار ومعلومات عوالمهم وأحوالهم.. كما أنّ البحر كان الشاهد على رحلة العرب إلى الآفاق.. للتجارة وللامتلاء بشيء من المغامرة في هذه الجغرافيا الكونية.. هل نذكر رحلة سلام ترجمان في القرن الثالث للهجرة إلى بلاد الصين... أم رحلة قدامة بن جعفر في القرن الرابع أم البيروني الذي رافق السلطان في القرن الخامس للهجرة في فتوحاته بالهند ليستقر بها نحو 40 سنة أم الإدريسي ورحلاته إلى الأندلس والمغرب ومصر والشام ليتحفنا «بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق»... وتتتالى القرون ليبرز الرحالة عبد اللطيف البغدادي وابن بطوطة صاحب أكثر من ربع قرن في دروب الرحلة التي اختزلها في «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»... وابن خلدون وغيرهم لنقرأ فيما بعد عناوين ظلّت منارات تضيء شيئا من تواريخ الناس الذين ذهبوا تاركين لنا «رحلة ابن فضلان» و«سلسلة التواريخ» للتاجر سليمان ومروج الذهب للمسعودي وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي و«تحفة الألباب ونخبة الإعجاب» لأبي حامد الأندلسي وتذكرة بالأخبار عن ايفاقات الأسفار» لابن جبير و«التعريف بابن خلدون» و«رحلته شرقا وغربا» لابن خلدون وصولا إلى الطهطاوي وكتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز... وهكذا إنّ المعرفة والإطلاع والتواصل مثّلت دوافع بارزة لمختلف الرحلات التي تنقل خلالها وعنها تفاصيل الحياة ودقائقها وفي ضروبها المختلفة الاجتماعية والسياسية والثقافية...

من هنا كانت فسحتي مع هذا التأليف الذي نحن بصدده... توغّلت فيه وأنا أتذكّر «الحلل السندسيّة في الرحلة الأندلسية» للأمير شكيب أرسلان...

ترى... ما الذي جعل هذا الفتى الأسمر القادم من بوابة الصحراء... دوز يمضي مع المغامرة وقد ألفناه الشاعر الذي يبثّ القصائد حنينه وأشواقه في زمن تبدّل فيه الناس وتداعت فيه القيم من صدق ومحبّة وحميمية...

ما الذي أخذه إلى هذه الفسحة الجميلة مع الوجدان غوصا في دهيشة الأمكنة والتواريخ والأحداث في بقعة شهدت أمجاد العرب وانتكاساتهم أيضا... غرناطة.. الأندلس والآن إسبانيا...

إنّه الشعر في صفائه النادر ومحنته وحرقة صوره ومعانيه.. نعم هذا ما قاد الشاعر والإعلامي نورالدين بالطّيب لإهدائنا خلاصة تجربة عميقة ومميّزة في الكشف والاكتشاف...

عندما ناولني كتابه الأخير «أيام إسبانية» بين كتالونيا والأندلس ونحن بصدد حديث عام عن الثقافة والمشهد الشعري وما جاورهما أحسست بأنّ الرجل مأزوم بالسؤال بل بالأسئلة.. أسئلة الحياة في تجاويفها ومنعطفاتها منذ قدم الناس إلى يومهم هذا.. تملكني شعور حاد فيه البهجة المزوجة بالانكسار في شجن نادر...

أنهيت جولتي في هذا الكتاب وانتهيت إلى ما انتهى إليه المؤلّف الذي تعاطى مع الكتاب بحنين وألم وانتشاء حيث كانت الفقرة الأخيرة موجعة إذ يقول فيها:

«عندما غادرت مطار غرناطة كنت أسأل نفسي: من صنع التطوّر العلمي والفني والثقافي والفكري في الأندلس؟ هل فعلا هم العرب أم شعب آخر يشاركنا نفس الاسم؟

لا أعرف، وربّما ليس مهمّا أن نعرف فالعرب الذين صنعوا ذلك المجد كانوا شعبا آخر لا صلة لنا به!»

نعم.. إنّها العبارة في عنفوان حيرتها وبراءتها وخساراتها ولكن.. إنها أحزان الشاعر صاحب «القصائد الموحشة» و«أمطار الصيف» و«أنت أيتها العزلة» و«القصائد» و«كعشبة في الرّمال» و«دوز ذاكرتي» وغيرها من الأعمال المتصلة بالمسرح والسّيرة والسيناريو...

هي دوز ذاكرة الشاعر الذي وهبنا عطور فسحاته في إسبانيا بين كتالونيا والأندلس..

كيف نسمّي هذا الكتاب..شعرا.. أم أدب رحلة أم رواية أم سيناريو اجتمعت فيه لغة القص وعجائب التوابح وشواهد المدن التي اندثر أهلها أم بورتريهات بحروف عالحب شيئا من أحزان الشاعر الشاهد على أيامه وأحوال العرب وهو يتجوّل في الأمكنة لتأخذه ببهائها النادر وتأسره بسحرها العائد إلى أنامل وسواعد وأفكار العرب المسلمين الذين عمّروا بها طويلا...

ثمّة حبكة في هذا السّرد الذي ألّف فيه الكاتب نورالدين بالطّيب بين تفاصيل الرحلة والفلاش باك تجاه تواريخ يعرفها الناس وهي معلومة للتلاميذ والطلاب ورجال الأدب والسياسة ولكنّها في هذه الحكاية التي عنوانها «أيّام إسبانية» صارت تمتلك لونا آخر من المتعة والبهاء والتشويق...

إنّ تعدّد زيارات الشاعر لإسبانيا جعلت الرحلة متعدّدة النّظر تجاه العناصر والتفاصيل بل إنها صارت متجدّدة باختلاف الأزمنة ليبرز معها تطلّع الشاعر إلى دقائق أخرى وتفاصيل من شأنها أن تثري هذا العمل الإبداعي وتغيّر من مجاريه في السرد واللغة والصور.

يقول المؤلف في الصفحة 13:

«زرت إسبانيا مرارا، وعرفت مدنا كثيرة فيها لكنّني مع كلّ زيارة اكتشف شيئا جديدا في إسبانيا التي مازالت إلى الآن وبعد خمسة قرون من طرد العرب منها تعاني عقدة التفوّق العربي ولا يحتاج الزائر العربي إلى تحليل ليفهم العنصرية بل أحيانا الفاشية التي تكنّها قطاعات واسعة من المجتمع الإسباني للعرب وإذا استثنينا مقاطعة كتالونيا التي تتميّز بانفتاح كبير على كلّ الثقافات ويحظى فيها العرب بتقدير كبير رغم أنهم لم يقيموا فيها أكثر من سبعين عاما لإعداد معركة بواتيه فإنّ أغلب المقاطعات الأخرى تواجه الحضور العربي المتمثّل في المهاجرين بكثير من العنصرية...».

في اسبانيا التقى الشاعر عددا من المبدعين والمثقفين والمسؤولين وتماهى مع علاماتها وأعلامها ومعالمها وأخذته أمكنتها الثقافية والمتاحف وتفاصيل الحياة اليومية والأصدقاء... وكل شيء ولكنّه في النهاية لم ينس دوز التي ظلت حاضرة في هذا الكتاب المدوّن للرحلة الإسبانية باعتبارها مهمة الشاعر ودافعه الأوّل للاكتشاف والتواصل مع الآخرين وإبداء المحبّة الباذخة والصّفاء النادر يقول في الصفحة 21:

«في كلّ مرّة تقودني ظروف العمل أو السياحة إلى إسبانيا أتذكّر تلك الأيّام البعيدة في واحتي الجميلة والبعيدة دوز، عندما بدأت أحلم بالسفر إلى أماكن غامضة.. كنت أسافر عبر أجنحة النجوم التي ترصّع سمائي إلى أن يأخذني النّوم...»

بهذا الشوق والحلم والبراءة، نفذ الشاعر إلى إسبانيا وكأنه يقطف ثمار حلم قديم...

كان طفلا يحرس النجوم ويحلم... وكان شابا أخذه الشعر إلى جنان اللغة وظلالها فصار عاشقا للوركا والبياتي ولرفائيل ألبرتي وتوغّل في الألوان ليهب شيئا من المحبّة ألوان خوان ميرو وبيكاسو وسلفادور دالي...

إنّه الشاعر الذي قاده حلم طفولته إلى الاكتشاف لتظل دوز البوصلة والملاذ في عالم نسي تاريخه وبهاء لحظاته وأمكنته النادر.. وهنا يقف الشاعر شاهدا على الأحداث وحاملا للأسماء والأرقام والتواريخ.. ديدنه تحديث الناس بالعراقة والأمجاد والقراءة المتفطنة التي تقول بجوهر الشعر وهو يعانق تقاطع المضارات والتقاءها في لون من التجاور والتحاور والتداول... والذاكرة عنوان آخر من العناوين الجميلة في هذا السرد المشوّق يقول المؤلّف في الصفحة 22:

جانب من عمارة غاودي

«كان المطر يغسل شبابيك المقهى الصغير وكانت ذاكرتي سابحة في بحر من النور والبهجة، ها أنّني مرّة أخرى وحيد في برشلونة.. عرفت مدنا في الشرق والغرب وسافرت كثيرا لكنّني لم أعرف مدينة في فتنتها ولا دفئها. هذه المدينة الساحرة المتاحف والموسيقى والحمام. مدينة صاغ معمارها «غاودي» الذي أقام له الكتالونيون في كل شارع متحفا وذكرى..»

ذكر الشاعر نورالدين بالطيّب متحف الفن الحديث Pedrera ، وحيّزا من المعمار الإسباني الذي أسّسه وصمّمه «غاودي» ومن أعماله الشهيرة حديقة بارك غويل Parc Guell وكنيسة ساغرادا فاميليا Gara du Familia وكازاميه Casa miaa وهي إحدى تحف هذا العالم «حيث انطلقت أشغالها سنة 1882 ولم تنته إلى الآن وهي مزار لآلاف السياح كل يوم يقفون في الطوابير لاكتشاف هذه التحفة المعمارية النادرة...»

لقد سعى الشاعر نورالدين بالطيّب في هذا الكتاب إلى أن تكون صياغة النص أدبيّة ونلمس ذلك في جوانب من سردية هذا العمل حيث تقرأ في الصفحة 25:

«بعت توقف قصير في شارع الرميلة كان عليّ أن أواصل رحلتي في المدينة الساحرة.

ـ إلى أين؟

سألتني الصديقة الشاعرة الكتالونية كنصول فيدال : إلى متحف بيكاسو... قلت

سرنا تحت سماء فيفي أذكر ذلك في زيارتي الأولى إلى جيرونة، بابلورويس الشهير باسم بيكاسو أعظم عبقريات القرن العشرين في الفن التشكيلي قال عن نفسه: «كنت في طفولتي أرسم مثل كبار الرسامين وانتهيت في شيخوختي بأن أرسم مثل الأطفال.. وهو القائل أيضا: «أنا لا أبحث لكنّني أجد...»»

تذكرت افتتاني بهذه الجملة البديعة الإيقاع وأنا أتجوّل في المتحف الذي يحمل اسمه في المدينة العتيقة ببرشلونة في القصر الذي ذكرني مدخله بصيّاط مدينة تونس العتيقة.. انحناءات الأزقة والنوافذ الصغيرة.

بيكاسو الذي انتحرت زوجته ماري تريز بعد وفاته شنقا في مستودع بيتها لأنها لا تتحمّل الوحدة بعده.. له أكثر من حكاية مع الرسم والنساء والعبقرية...»

جانب آخر من الحكاية ينطلق من الطوابير المنتظرة للدخول إلى متحف غاودي حيث يكتشف المؤلف عوالم أخرى تصحبه ذاكرة قوية فيها حكاية المعتمد ابن عباد وعشقه لاعتماد التي بنى لها قصرا رائعا رسماه باسمها.

وبين كتالونيا وجيرونا وبرشلونة لقاءات مع أصدقاء ولقاء مع الشاعر في رحاب جمعية فانفي حول كتاب «دوز ذاكرتي حيث يقول بالطيب:

«وأذكر يومها أنني قرأت نصّا باللغة العربية ترجمه صديقي عبد الحميد القاطي إلى الفرنسية ومنها ترجمة الصديق لويس من جيرونة إلى الكتالونية...»

يقول أيضا في الصفحة 50:

«أتجوّل في أزقة جيرونة الصغيرة في الصباحات، أستمتع بمشهد أواني الزّهر في الشرفات هذه الخصوصية الإسبانية التي حملها العرب معهم من بغداد من الجنائن المعلقة، أدخل حانة صغيرة في شارع رميلة الطويل في التلفزة صور لمجازر غزّة...

في الكتاب تاريخ العرب في الأندلس وصولات طارق بن زياد وموسى ابن نصيّر وصولا إلى قولة عائشة المعروفة لابنها أبي عبد الله «أجل فليتك تبكي كالنساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال.. عند سقوط غرناطة ويستعيد نورالدين بالطيب هذا التاريخ متسائلا وناقدا ومتحسّرا ومتفائلا...

إنها قراءة أخرى لحيّز من تاريخ إسبانيا العربي وذلك ضمن جولة بين ثنايا منجز حضاري عربي إسلامي منه بالخصوص قصر الحمراء بجبل الريحان...

متعة يقترحها هذا الكتاب الذي يمكن أن يكون مفيدا في الأوساط المدرسية ليتعرف التلاميذ على جانب من التاريخ بشكل أدبي فيه التشويق وأحيانا بتقنية الترافلينق السينمائية..

أيّام إسبانية.. فسحة أخرى مع الكتابة في تخوم الرحلة بكثير من شجن الكينونة وأدبية الرغبة.. تلك الرغبة المتصلة بالكشف والاكتشاف...

سرد يعيد قراءة الأشياء.. الأمكنة، التواريخ، الذاكرة والقصائد في بعدها الجمالي الساحر وهي تبث عطورها في الأرجاء ومنها القصيدة التي كان يردّدها لوركا التي سبقت موته بالحديث عنه بالصفحة 136:

في البستان
سألقى الموت
سأكون قتيلا
قرب شجيرات الورد
كنت ماضيا، أماه
لأجني الورود

تداعيات

العباقرة يفضلون «جيري»

رحاب أبو هوشر

■ سألت عددا من الأطفال من أعمار مختلفة، عن أي من الشخصيتين يحبونها ويودون لو يكونونها، في المسلسل الكرتوني «توم وجيري»، الأثير لدى الصغار وكثيرا من الكبار مثلي، فأجابوا كلهم أنهم يودون تقمص شخصية «جيري»، ولما سألتهم عن السبب، أجابوني بأنه منتصر، قوي ويفوز دائما، بينما كان «توم» يثير سخريتهم ونفورهم لأنه يسقط في مقالب جيري، وأنه ضعيف ويخسر دائما، إلا طفلا واحدا في الرابعة من عمره، قال أنه يحب توم، ولما تساءلت: ولكنه يخسر، أجابني مبتسما بثقة: عادي، ممكن أن يفوز مرة.

هذا ما يتغذى عليه الإنسان العربي، منذ الطفولة مع تعلمه المشي والكلام، ازدراء الفشل وقرنه بالضعف، والإصرار على النجاح وقرنه بالقوة، وهي قيم أساسية، لصوغ شخصية الفرد والجماعة، لو أنها قامت على مفاهيم حقيقية، إنسانية وفكرية وأخلاقية، أو صدرت عن فلسفة تعظم الإنسان كقيمة أساسية في الحياة، وتؤنسن معه قيم القوة والضعف، والنجاح والفشل.

القوة والنجاح، عناوين اجتماعية مشوهة البنية، مفرغة من معناها الإنساني، تعوض غياب المفاهيم والرؤية بالالتفاف عليها، وانتزاعها من سياقاتها الفكرية والمعرفية. تحول بين الفرد واستكشاف طاقاته الذاتيه ونموها، وتصادر حقه في اختبار قدراته وإمكانياته ورغباته، وتمارس قسرا لمفاهيم كونية على الاتساق مع مفاهيم اجتماعية بدائية، لثقافة متضخمة بالأوهام، معيارها الوحيد مرآة تاريخية مهمشة، لم يعد يعرف أو يعترف بسواها.

سيرى الجميع فيها أبهى انعكاس لصورته، سيرى كل منا نفسه جميلا، بل الأجمل، فمثل هذه المرآة لا تتسع لانعكاسات صورة جماعية.

في أول اشتباك له مع الحياة، على الطفل أن يكون «غالبا»، هذا ما تلقننا إياه ثقافتنا الاجتماعية، وما تدفعنا إليه دفعا قهريا. وأن يكون مغلوبا، فهذا يستدعي سخط العائلة، وقلقها على مستقبله الذي لا يعني لها إلا مستقبلها. إذا ما تعارك مع أقرانه، وخسر «المعركة»، ذهبت الحادثة وصمة عار لترافقه سنوات، أما إذا فشل في دراسة أو علاقة عاطفية في مرحلة الشباب، فذلك العار الذي لن ينمحي من سيرته، ويصبح ما حدث معه، قصة للضحك في السهرات بعد عشرين عاما، وإن غلبته الدنيا بعد ذلك، صار فاشلا مسكينا، مثارا للشفقة والسخرية!

بين هذه الثنائيات النمطية، تغيب أي مساحة وسطى، هي الميدان الحقيقي لاختبارات القوة والضعف، ومواجهة النجاح والفشل، واكتشاف الذات والأدوات وطرق الدروب باستقامتها ومنعرجاتها أيضا، وبروز المواهب والميول وتقدير القدرات والإمكانيات والاعتراف بها. عوضا عن ذلك، هناك إنكار لتلك المساحة، يتوطأ عليه المجتمع، بأفراده ومؤسساته، فإما أن تكون قويا أو ضعيفا، مهزوما أو منتصرا، ناجحا أو فاشلا.

ماذا أنتجت تلك الثقافة المسكونة بأوهام القوة والنجاح، والمنفصلة عن واقعها والعالم معا، بتكريس تلك الثنائيات؟ لقد أنتجت منتجها الأهم، الفشل.

في مجتمعات «العباقرة»، لن نعثر إلا على المسكونين بالخوف من الفشل، الفاقدين لثقتهم بذواتهم وطاقاتها، من أصبحوا أسرى الخوف من النجاح، والحريصين في نفس الوقت على إخفاء ضعفهم، وادعاء القوة، واختراع نجاحات كاذبة ومواهب زائفة، فمن كتب مقالا أو أصدر كتابا، وإن كان رديئا، ظن في نفسه عبقرية لم تتح لسواه، وربما وضع نفسه في ميزان العالمية، رغم أن منجز ودور منطقته كلها غير مرئي على خريطة العالم، والموظف يشعر بأنه الأجدر دائما بمنصب أرفع، وإن شغل الوظيفة بالواسطة، وسائق التكسي في حالة دفاع دائمة عن مهنته التي لا يعدها المجتمع عملا «ناجحا»، فلولا سوء الحظ لكان في موقع آخر، وآخرون لا يخرجون من فشل إلا ليقعوا في آخر، مع إصرار بائس على إنكاره، وإنكار مسؤوليتهم عنه، ولو جزئيا. هل ستبقى روح الطفل ابن الأربع سنوات عفية وقوية، عندما يكبر ويدخل في صراع الفاشلين؟ بودي أن يظل محبا لـ«توم»، وأن يحب فشله كما يحب نجاحه.

لم ننجز إلا الفشل، في مجتمعات ترتدي ريش العبقرية، ويرى أفرادها في أنفسهم عباقرة لا بد أن يلازمهم النجاح طوال حياتهم، وأنهم يمتلكون القدرات الكلية لممارسة كل الأعمال وكل الأدوار.

النجاح الحقيقي المبني على المعرفة والتجريب وامتلاك حس المغامرة، غير معترف به، معاييره تتناقض مع المنظومة الثقافية، فأن تعمل ما تحب ويتفق مع مفردات شخصيتك، وما يتواءم مع قدراتك وطموحك الفردي، فهذا يعد مغامرة خارج سياقات الثنائيات النمطية، حيث يصبح المرء في مهب احتمالات الفشل أو النجاح، النصر أو الهزيمة. وأن تفشل، هذا لا يعني إلا نهايتك مهنيا واجتماعيا، وربما إنسانيا، أما أن لا يقتلك الفشل وأن تمضي بالمحاولات، ، فهذا يعني أنك مضطرب، لا تملك البصيرة، وستثير الريبة حولك. يمكنك على الأقل أن تماثلهم في الوعي والسلوك، ليس مهما لحظتها فشلك، ولكن احرص على الكذب والإنكار، وادعاء النجاح، وإن كان وهما في رأسك. اكذب وراكم الفشل، وتنقل مثل قنبلة تبذر السخط والغضب والرغبة بتحطيم الناجحين، وستصبح ناجحا بقدر ما تعيق تقدم الأقدام الواثقة حولك، وهكذا، تحقق نوعا من شفائك. كلنا فاشلون، والفشل مع الجماعة، نجاح، بل عبقرية.

الثقافة العاجزة فقط، لا تحترم الضعف باعتباره مكونا طبيعيا من مكونات الشخصية، وضروريا لنموها وتطورها، ويتقاطع مع قوتها، هي ثقافة لا تحترم الإنسان، وتمارس حجرا على طاقاته وقدراته، وعلى حقه في اختبار الضعف كما يختبر القوة، يقتل أفقها ويشوهها، تجاه إنتاج متوالية من الفشل. ثقافة لا تحترم الفشل مفهوما وتجربة بوصفه مكونا عضويا للنجاح ودافعا اساسيا له، لن تحقق نجاحا يعتد به.

ثقافة «مجتمع العباقرة» ستبقينا قيد الكساح الحضاري والإنساني، بينما أوصالنا الاجتماعية يتغذى عليها الخوف والإنكار.

أساتذة باحثون وأكاديميون ومثقفون يناقشون «واقع اللغة والثقافة بالمغرب»

حسام هاب *

■ نظم مركز الدراسات والأبحاث الإنسانية – مدى بشراكة مع اتحاد كتاب المغرب منتدى ثقافيا وفكريا تحت عنوان: «واقع اللغة والثقافة بالمغرب» يوم السبت 9 فبراير 2013 بالدار البيضاء، ويأتي تنظيم هذا اللقاء الفكري في إطار ما عرفه المغرب بعد المصادقة على دستور 2011 من إصلاحات، ومجموعة من المراجعات التي لم تقتصر على الحقل السياسي، والتي توسعت لكي تشمل قضايا الهوية واللغة والثقافة. وما من شك أن العودة إلى هذه القضايا المرجعية أثارت جملة من النقاشات التي تسائل المبدع والباحث والمثقف بالدرجة الأولى، وأن النتائج التي سوف تتمخض عنها، والتي ستتبلور على صورة قوانين، ومؤسسات فاعلة، سيكون لها الأثر حاسم على موقع الثقافة والفكر ومستقبلها في بلادنا. وانطلاقا من أهمية الشأن الثقافي وحيويتها في بناء الشخصية والمجتمع المغربيين، فقد نظم هذا المنتدى الفكري للمساهمة في بلورة تصور فكري وثقافي مشترك لإغناء مضامين القانونين التنظيميين المتعلقين ب: المجلس الوطني للغات والثقافة المغربية، وتحديد مراحل تفعيل الطابع الرسمي للأمازيغية.

خلال الجلسة الصباحية التي تكلف بتسييرها الشاعر المغربي إدريس الملياني وبعد ذلك الصحفي محمد حفيظ تم فتح النقاش حول وضعية اللغة والثقافة بالمغرب من خلال مداخلتي الأستاذين عبد الدين حمروش عضو المكتب التنفيذي لاتحاد كتاب المغرب، والمختار بنعبدلاوي أستاذ الفلسفة بكلية الآداب و العلوم الإنسانية بن مسيك ومدير مركز مدى. فخلال المداخلة الأولى حاول ذ– حمروش ملامسة الإطار العام للواقع اللغوي والثقافي بالمغرب على ضوء وجود معطيين دستوريين هما: المجلس الأعلى للغات والثقافة المغربية، وتأسيس أكاديمية محمد السادس للغة العربية. حيث اعتبر أن فتح هذا النقاش الفكري هو محاولة استباقية لإدلاء المثقفين بآراءهم وتصوراتهم حول هذين المعطيين وذلك من خلال ثلاث محددات هي: تصور الثقافة كقضية لها أبعاد خاصة وعامة، والواقع المركب للممارسة الثقافية بالمغرب، وعلاقة الثقافة بمختلف القطاعات الوزارية. وأكد ذ– حمروش أن الإطار المرجعي لكل هذه المحددات هو تبني ثقافة الحداثة بكل ما تحمله من معاني التنوع والتعدد وحقوق الإنسان، والمواطنة مع التركيز على الإنسان والمراهنة عليه. كما ركز ذ– حمروش في مداخلته على أهمية الثقافة كاستراتيجية لتنمية الوطن والمواطن معتبرا أن التنمية الثقافية تحفظ للمغربي كرامته وهويته وثقافته من خلال الاستثمار الثقافي. وختم ذ– حمروش مداخلته بطرح مجموعة من الأفكار والاقتراحات للنهوض بوضع الثقافة واللغة بالمغرب، وهي: تخصيص حيز مادي وثقافي من طرف كل القطاعات الحكومية، وبلورة خارطة طريق للنهوض بالشأن الثقافي، وإكساب الجهوية بعدا ثقافيا، وتحقيق التكامل والتنسيق بين كل المؤسسات الثقافية، والاعتناء بثقافة العالم ولغاته دون مركب نقص حتى تتحول الثقافة من شأن عام إلى شأن خاص، من خلال انفتاح المجتمع على الثقافة، وتحقيق صناعة ثقافية والاستثمار الثقافي في الانسان خدمة للثقافة المغربية.

أما المداخلة الثانية للأستاذ المختار بنعبدلاوي فقد ناقش فيها أسئلة اللغة والثقافة بالمغرب، حيث أكد في بداية مداخلته أن الورقة التي سيقدمها تسعى إلى النقاش حول سؤال مهم وجوهري هو: لماذا نناقش اليوم سؤال الثقافة ووضعية اللغة والمخاطر المحدق بها؟ خاصة مع وجود تهديدات والرغبة في البحث عن الفرص المتاحة لتجديد وحماية اللغة العربية. أبرز ذ– بنعبدلاوي أهم المخاطر التي تواجه اللغة العربية وهي الثورة المعلوماتية، و انحسار اللغة إلى وظيفة استعمالية في إطار تداولي، وتحول اللغة العربية إلى متحف لأن المجالات المنفتحة على العلم وغيره غيرة قادرة على استيعاب هذه اللغة، وأخيرا الفصام الثقافي داخل المجتمع. ثم عرج ذ– بنعبدلاوي إلى الحديث عن المآلات التي من الممكن أن تفضي إليها هذا المخاطر وحددها في ضعف الاستثمار في اللغة العربية بسبب قيمتها في السوق، والفقر المعجمي والجفاف المخيالي عند التلاميذ مما سيعطينا أجيالا بدون ذاكرة، والتطرف الديني. وتناول ذ– المختار بنعبدلاوي بعد ذلك إشكالية اللغة العربية والانفتاح على الشباب واعتبر أن الإبداع في حاجة إلى النص ثم المبدع والقارئ فلابد للمبدع أن يساهم استشاريا في الإرتقاء بالنص الأدبي. وختم ذ– بنعبدلاوي مداخلته بالحديث عن دور اللغات الأجنبية داعيا إلى الانتقال من الأحادية إلى التعدد وفتح منافذ حول اللغات الأجنبية لتصبح مكملا للغة العربية لأن تعددها سيجعل اللغة العربية هي المستفيد و المنفتح عليها.

تناولت الجلسة الزوالية موضوع أجرأة الأمازيغية. وقد ناقش الموضوع الأستاذين محمد أقوضاض عضو المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، والأستاذ أسامة الزكاري باحث في التاريخ، فقد أشار ذ– أقوضاض في بداية مداخلته إلى مجموعة من التساؤلات التي كان من بينها: لماذا بقي المعهد الملكي يشتغل لوحده في موضوع الأمازيغية؟ أليس من حق المواطن المغربي أن يعتز بلغاته خصوصا أن المغاربة دخلوا مشروع الجهوية؟ أليس للغات والثقافات الوطنية أهمية في التنمية البشرية وتطور البلاد، وعلى مستوى تعليم الأمازيغية؟ لماذا ذلك النوع من الإرتجال والتسرع، خاصة في تكوين أطر تدريسها؟ ألا يمكن إنشاء فروع في مؤسسات التكوين التربوي لتهيئ أساتذة الأمازيغية خلال مدة سنة على الأقل، عوض الاقتصار على التكوين السريع في أيام معدودة؟ ألا يمكن إلى جانب حرف تيفيناغ والحرف اللاتيني، استعمال الحرف العربي لتسهيل تدريس الأمازيغية؟ هل من الضروري الإسراع والتسرع في توحيد الأمازيغيات، أم أن هذه العملية تتطلب استعمال الأمازيغيات الجهوية مرحليا؟ ألا يمكن تشكيل هيئة وطنية لتوحيد الأمازيغية وتهييئها حسب الدستور ريثما يتأسس المجلس الوطني للغات والثقافة المغربية؟ للإجابة على هذه التساؤلات قدم الأستاذ أقوضاض مجموعة من الاقتراحات كان من بينها: أنه لتدريس الأمازيغية لابد من أطر لهم تكوين متميز، فلا يكفي التكوين السريع خلال أيام معدودة، بل لا بد من مؤسسة لتهيئ هؤلاء الأطر، مثل ما هو موجود في تكوين الأساتذة باللغات الأخرى. كما أنه لتوحيد الأمازيغية لا يمكن فرض لهجة جهوية على باقي اللهجات، أو استراد نماذج أجنبية، لأن ذلك سيؤدي إلى النفور من تعلمها. ولأن الأمازيغية مكون يهم كل المغاربة، فلا بد من هيئة وطنية موسعة ومتنوعة يشارك فيها باحثون في اللغة وفي الأنثربولوجيا والسوسيولوجيا والسيكولوجيا والديداكتيك والأدب، لبناء مشروع توحيد الأمازيغية. كما أنه لابد أن يكون للغة والثقافة الأمازيغيتين دور مهم في التنمية البشرية وترميم القيم، من خلال الاعتراف بهما وإحيائهما ومن خلال إعادة الاعتبار إلى الذات الفردية والذات الجماعية، المحلية والجهوية والوطنية، وتطوير حياتها وأساليب الإنتاج لديها، مع استثمار الطاقات البشرية وتطوير ملكاتها لتنمية المجال.

وبعد مداخلة الأستاذ أقوضاض، قدم الأستاذ أسامة الزكاري مداخلته حيث انطلق من مجموعة من الملاحظات الدخلية كان أهمها: هل يمكن تنزيل مقتضيات الدستور بخصوص الطابع الرسمي للغة الأمازيغية بدون استحضار باقي المكونات اللغوية الوطنية وعلى رأسها اللغة العربية؟ فالنهوض باللغتين معا والارتقاء بهما يظل مطلبا محوريا في هذا الإطار. كما أنه هل يمكن الانتقال إلى تفعيل مقتضيات التنزيل الاجرائي لقوانين ترسيم اللغة الأمازيغية، بدون اعادة تقييم الرصيد المنجز على مستوى المؤسسات الرسمية، وخاصة تجربة المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية؟ فهذا التقييم حسب ذ– الزكاري يجب أن يتحول إلى ورش جماعي ينخرط فيه الجميع بغض النظر عن انتماءاتهم وعن مواقفهم تجاه التجربة. وبطبيعة الحال فالبعد الوطني والنزاهة الفكرية يجب أن تشكل محورا لهذا التقييم، حتى لا نقع في «انزياحات بديلة» تفرغ العملية من بعدها النبيل. كما أشار الأستاذ الزكاري إلى أنه هل يمكن تفعيل الطابع الرسمي للغة الأمازيغية بدون استحضار رحابة واقع التعدد اللغوي والثقافي الذي يميز الهوية الثقافية للمغرب؟ بمعنى أن مبادرات هذا التفعيل يجب أن تستقرأ الواقع المغربي في تنوع رصيده اللساني والإثنوغرافي، ثم في امتدادات هذا التنوع سواء نحو العمق الافريقي أو نحو العمق العربي أو نحو العمق المتوسطي.

وفي ختام مداخلته عبر ذ– أسامة الزكاري على أن العمل المنتظر بهذا الخصوص لا يتأسس على رذاذ المعارك الدونكيشوتية ضد هذا أو ضد ذاك، بقدر ما أنه يتأسس على حسن الإنصات لنبض الواقع المغربي ولآفاق التعدد داخله ولتكامل مكونات هذا التعدد وتجانسها التاريخي، وتحديدا مكونيها العربي والأمازيغي، ذلك أن الانتماء إلى هذين المكونين يمثل انتماءا حضاريا واسعا يتجاوز إشكالية التداول اللساني إلى رصد مجمل التراث الرمزي المشترك الواحد/ المتعدد، المنصهر في بوتقة متعددة الدوائر هي عنوان للهوية الثقافية المغربية العربية الإسلامية الأمازيغية. كما اعتبر ذ– الزكاري في الأخير أن أي تنزيل للمقتضيات الدستورية المتعلقة باللغة الأمازيغية بدون تأصيل ثقافي، لن يشكل إلا ضربا من التهافت المتماهي مع يقينياته. ومن هذا المنطلق بالذات، يبدو الابتعاد عن حكاية «العرق» و«الأصل النقي» واليوتوبيات النرجسية والاستقراءات غير التاريخية لوقائع الماضي والإفراط المرضي في البحث عن الخصوصيات، أمورا محورية في عقلنة التفكير والفعل والمبادرة بهذا الخصوص.

* باحث من المغرب

«سفر أورشليم» رواية جديدة تعيد إنتاج الأسطورة

القاهرة ـ «القدس العربي»:

صدرت رواية «سِفْر أورشليم» للروائية «د. شيماء الشريف»، في 192 صفحة من القطع المتوسط.

«سفر أورشليم» رواية رمزية تتجسد فيها مدينة أورشليم ككيان له صوت أنثوي يقرر مصيره بنفسه بعد أن أعيتها الحيل من كثرة النزاع حولها بين ديانات التوحيد الثلاثة، فتقضي على ماضيها بنفسها وتفتح أبوابها لاستقبال رجل وامرأة لتبدأ بهما تاريخاً جديداً تفرض هي شروطه.

ويبدأ الزوجان قمر وأقمر حياتهما على أرضها وينجبان توأماً يسميانه نجم وشمس ويلتقيان بجيران مجنحين هما نور ونوران الزوجين الطيبين اللذين ينجبان بدورهما ضياء وهلال. ويعيش الجميع في سلام ومحبة في ظل رعاية المدينة الحارسة التي تخلو من مخلوق سواهم، والتي تلزمهم بتجنب الاختلاف الفكري والعقائدي، وما عليهم جميعاً سوى السمع والطاعة، وفي مقابل ذلك توفر لهم أورشليم جميع سبل الراحة والحياة الوديعة الهادئة. لكن هذا الوضع لم يرضِ قمر التي تتمرد على هذا الأسلوب وتجهر بتمردها فتعاقبها أورشليم بقتل ابنتها شمس وإخفاء جثتها، فلا يبقى أمام قمر بعد فاجعتها تلك إلا أن تفكر في الهرب من مغادرة أورشليم، لكن المدينة تزلزل أرضها تحت أقدامهم وهم يحاولون فتح جزء أسفل إحدى بواباتها العملاقة فلا تتمكن قمر إلا من تهريب ابنها الوحيد نجم الذي كان بالكاد يبلغ الرابعة من العمر قبل أن تلقى حتفها هي وزوجها في الأرض التي انشقت لتبتلعهما معاً وإلى الأبد.

ويبدأ الطفل الهارب حياة جديدة في كنف الشاب يوسف صانع الحلي وأبيه السيد بحير المقدسي، دون أن تفارقه ذكرى المدينة التي وُلد وتربى فيها لأربع سنوات، وحين يكبر؛ يتبع جيوش المملكة المجاورة التي تهاجم المنطقة بهدف الاستيلاء على أورشليم التي ازداد الصخب الصادر من خلف أسوارها دون أن يعرف أحد لذلك سبباً، وبعد نجاح الجيش في اقتحام المدينة، لا يجدون أي أثر للمدينة، التي قررت أن تلملم أرجاءها وتدفن مبانيها بأيديها بعد أن تمرد عليها حتى المجنحون الذي كانت تعتمد على استسلامهم بعد تخلصها من قمر وأقمر، فما كان منها إلا أن قررت ألا تسكن أرضاً بعد اليوم وأن تصير روحاً تسكن النفوس لتقضي على الاختلاف والخلاف لأن ذلك من وجهة نظرها هو السبيل الوحيد إلى السلام الذي لم تعرفه أبداً في تاريخها والذي تتوق إليه.

ثم تقفز الأحداث لمائة عام كاملة حيث تدور في المنطقة حرب عقائد شعواء في المنطقة، فيما نجد أستاذة الفلسفة المرموقة دُرَّة تتبنى اتجاهاً سلمياً فكرياً للقضاء على هذه الحرب، إلى أن تهرب بصحبة إحدى تلميذاتها إلى قصر أولاد نجم المقدسي – آخر من سكن أورشليم– ـ وتقرر تحدي خرافة «لعنة أورشليم»، وتشرع في إنشاء مدينة في نفس مك